الفصل الثاني

عهد الموان

في اثناء خدمتي العسكرية ، كنت اعود احياناً الى القرية في اجازة وانزل الى اعماق المنجم للعمل ، وكان رئيس عمال المنجم يضعني الى جانب المكا ، زيادة في الحذر ، وهم رجال من « الصفر » الذين يخوضون دائماً الانتخابات ضد مرشحي النقابة ، لتعيين مندوبي عمال المناجم، والمندوبين لدى صندوق الاغاثة .

ولدى عودتي من الثكنة ، وانتهاء مدتي العسكرية ، رفض رئيس العمال اعادتي الى المنجم ، فتحتم علي ممارسة مهن عدة ، فكنت عامل بناء ، ثم دهاناً في المباني ، وهي مهنة مارسها اخي لويس، الذي اعدمه الالمان رمياً بالرصاص سنة ١٩٤٢ .

وكنت ابذل نشاطاً كبيراً في حركات الشبيبة الشيوعية ونقابة المناجم الاتحادية ، واتصل بغابرييل بيري الذي كان يفتتح في صحيفة الطليعة ، في تلك الايام ، حياته المجيدة بوصفه صحفياً شيوعياً ، وفي حزيران ١٩٢٢ قتل اربعة عمال اثناء

اضراب حدث في الهافر، واعلنت «السي جي تي» اضراباً شاملاً مدته اربع وعشرون ساعة ، يوم ٢٨ حزيران ، ولم تبلغ عمال المناجم ، في نواحينا هذه الانباء ، الا متأخرة ، ورغم ذلك اتبعوا شعار الاضراب ، وتقيدوا باوامر اتحاد النقابات ، وكنت قد اصبحت عامل الدعاوة في منطقة كارفان ، فأخذت بعد فراغي من عمل النهار انتقل في المساء من اجتماع الى اجتماع على دراجة ، وفي سنه ١٩٢٣ اعلن عمال المناجم اضرابين اولهما في شباط والآخر في تشرين الثاني فأيدت الاول وعارضت الثاني :

اما اضراب ١٥ شباط فقد اعلن اثر احتلال الرور ، وكانت ارساليات الفحم الالماني قد توقفت مؤقتاً . وكان عمال السار مضربين فكانت تلك فرصة مؤاتية ، وبعد بضعة ايام من النضال انتزع العمال من اصحاب الاعمال ، زيادة في الاجور ، فأصدر مجلس اتحاد عمال المناجم الوطني اوامره باستئناف الاعمال ، وهكذا انتصر العمال .

وفي شهر تشرين الثاني ، كانت زيادة الاجور في بعض المناطق قد سبقت الاوامر باعلان الاضراب الثاني ، وفي هذه الظروف رفض عمال « السي جي تي» والعمال غير المنضمين الى نقابة ما، ان يستجيبوا لنا، وكنا قد نجحنا في شباط بحملهم على الاضراب . اما اليوم فقد لاقوا فشلا ذريعاً . كنت مناضلاً فتياً ، فتعلمت من هذه التجربة المزدوجة درساً في الواقعية ،

وفي اثناء المناقشات التي جرت في مؤتمر اتحاد عمال المناجم ، الذي انعقد في مونتسولي‌مين في حزيران ١٩٢٤ صرحت قائلا: « لا يخلق بانسان ان يعد رغباته حقائق ... فالثوري الحقيقي هو الذي يبدأ بملاحظة الوقائع في ضوء حقيقتها وحدها ، وانني ارى انه قد يتخذ في حال معينة قرار معين ، فاذا تغيرت الحال، يجب المبادرة الى اتخاذ قرار يختلف عن القرار السابق .. يجب الانسحاب اذا لم تبد شروط النصر متوفرة، والمبادرة الى المعركة فوراً اذا املنا على العكس ، بنصر مؤكد... وعلى كل حال ، فلا يمكن ان يرتبط المناضل بصيغة او بقرار ... ولا يمكن ان نسيء الى الحركة الثورية بامثال هذه المواقف » .

وكنت اذكر هذه الفكرة التي كثيراً ما اوضحها لينين :

« يجب ان لا نبقى خلف الطبقة العاملة . علينا ان نكون امامها ، ولكن خطوة وحسب » وظل جدي عضواً في الحزب الاشتراكي ولكنه كان يشجع نشاطي النقابي ، وكان يقدر الشيوعيين ويحترمهم ، فاذا هاجمهم احد في حضوره صرخ : « امنع اياً كان من التعرض للشيوعيين » .

وكان شعار المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية المنعقد عام ١٩٢١ هو : « انجهوا الى الجماهير ، والفوا الجبهة المتحدة » ولم يفهم المناضلون الشيوعيون في البادي كاليه ، حق الفهم ، ما تنطوي عليه الجبهة المتحدة من خطة، وكانوا يرون في الدعوة لها استسلاماً للزعماء « الاصلاحيين » وشبه خيانة ، فكنت اناضل في المؤتمر

الاتحادي بآفيون ، في سبيل الجبهة المتحدة .

وفي مؤتمر باريس ، المنعقد في تشرين الاول ١٩٢٢ صوتت منطقة البادي كاليه بـ ١٤٦ صوتاً ضد الجبهة المتحدة و ٤٠ كانوا مع الجبهة . وكنت في المؤتمر مندوباً عن الاقلية الداعية الى الوحدة .

وبعد اشهر قليلة ، اقتدى جميع المندوبين بنا وآمنوا بوجهة نظرنا ، ومنذ تلك الايام ، والبادي كاليه مخلصة لمباديء الاممية الشيوعية ولراية الوحدة البروليتارية .

وفي كانون الثاني ١٩٢٣ تم احتلال الروز ، فقام الحزب الشيوعي يناهض سياسة بوانكاريه ، وهي سياسة عنف قدر لها ان تغذي فيما بعد ، دعاوة هتلر الثأرية .

ونشر الشيوعيون الفرنسيون نداء في اوساط جيوش الاحتلال : « العمال الالمان هم اخوان لكم ، فاتحدوا ! » وسرعان ما ظهرت نتائج هذا النداء ، ففي دويسبورج ودورتموند كان الجنود الفرنسيون ينشدون النشيد الاممي الشيوعي ويتقدمون المظاهرات الثورية . وفي ايسن رفضوا اطلاق النار على العاطلين عن العمل الذين احتلوا سراي الحكومة .

ولكن اعمال القمع جاءت ضارية عنيفة : واعتقل قادة الحزب وقادة «السي جي تي» (كاشان ، ومونموسو ، وسيمار وغيرهم) وسجنوا بتهمة التآمر على سلامة الدولة . وفي سجن

السانتيه اضرب غابرييل بيري عن الطعام ؛ والتأم مجلس القضاء العسكري في مايانس ووزع ١٣٣ عاماً من السجن على ٣٧ جندياً من الشبان .

في تلك الايام العصيبة انسحب من صفوفنا فروسار ، سكرتير الحزب ، ولكننا تلقينا عضواً مجيداً وهو الكاتب العظيم «هنري بربوس» صاحب كتاب «النار» ومؤسس «الاتحاد الجمهوري للمحاربين القدماء» .

في تلك الساعات الزاخرة بالنضال والاضطهاد ، وفيما كانت العاصفة تنقض على الحزب الشيوعي ، دعيت الى ادارة اتحاد البادي كاليه في البدء بوصفي امين سر مساعداً ثم في اواسط ١٩٢٤ اميناً للسر وهكذا اصبحت حزبياً مثابراً وثورياً محترفاً .

وفي مؤتمر ليون (١٩٢٤) عينت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، وفي اكتوبر ١٩٢٤ عينت اميناً للسر في منطقة الشمال ، وكانت تضم ثلاث نواحي : الشمال ، والبادي كاليه والسوم ، وكنت لا ازال عضواً في الاتحاد الوطني لعمال المناجم .

وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٤ مات لينين ، واعترانا الم هائل ، واحست البروليتاريا الامية ومناضلوها بانهم اضحوا فجأة كاليتامى ، فوجه لينين غاب .

ولكن الثورة استمرت على الرغم من ذلك . فان طبقة

مؤلفة من الملايين ، تملك المستقبل في يدها ، تلقت تعاليم لينين . مات لينين ولكن اللينينية كانت لا تزال تحيا وتنتصر .

وانا ، شأن جميع المناضلين من جيلي ادين بالكثير للينين ، فتفكيره يجمع الى العمق ، بساطة تجعله في متناول الشعب ، وكثيراً ما اتيح لي ان اطلع الرفاق الشبان على كتابيه في «الثورة والدولة» « وامراض الطفولة في الشيوعية» فكانوا يؤخذون دائماً بروعة ما يقرأون فيهتفون : « ما اجمل هذا وما ابسطه !»

ان مؤلفات لينين غنية جداً ، فيجد فيها المناضل دائماً مواضيع جديدة للتفكير ، واضواء يلقيها على المشكلات السياسية ، وكيف نتغلب على العقبات القائمة في طريق الاشتراكية اذا لم ندرس كتب لينين ؟ ان اللينينية هي نظرية الثورة العالمية البروليتارية المنتصرة .

ولينين ، هو ، قبل كل شيء ، المناضل في سبيل السلم ، ففي غمرة الحرب الاستعمارية ، وفوق تفجر الاحقاد البهيمية ، والاهواء الحيوانية ، والمظالم الشعوبية ، ناضل لينين في سبيل السلام ، لا بثغاء سلمي ضعيف ، ولا بالدعوة الى عدم الصمود في وجه الشر ، ولا بالتصريح « بان العبودية خير من الموت » ولكن بدعوة الجماهير الكادحة الى العمل الثوري ، والى تسلم الحكم .

وعبقرية لينين كانت تحليلاً عبقرياً لظاهرات التطور

الاقتصـــادي في عصرنا – تمركز الانتاج الى اقصى حدود التمركز وتحول المزاحمة الى اتفاقات الحصر وسيطرة هـــذه الاتفاقات ، الى جانب رأس المـال المالي ، وتصدير رؤوس الاموال ، وهو يتخطى تصدير البضائع ، وتوزيع العالم عـلى التروستات الرأسمالية ، واعـادة توزيع العالم كله على بعض القوى العالمية الكبرى . لقد اكتشف لينين قانون التطور الرأسمـالي ، غير المتساوي ، في مرحلته الاخيرة ، اي مرحلته الاستعمارية .

ومن ذلك خلص من ناحية الى طبيعة الحروب المحتومة بين القوى الرأسمـالية ، لاعـــادة توزيع العالم على قاعدة تناسب القوى الجديدة، ومن ناحية ثانية، الى امكان انتصار الاشتراكية في بلد واحد .

ولينين هو الدعوة المستمرة الى الثورة ، وهو المفهوم الثوري الذي يمزق حجـــاب الطوبويات الخيالية البورجوازية الصغيرة ويحارب الانتهازية والنقابية الفوضوية، في خلال الظاهرات الزاخرة بأعلى درجات التعقيد والصعوبة ، كان تحليل كل موقف تحليلاً موضوعياً محسوساً يكشف عن « صلة الوصل » وعن حبل النجاة الذي تعتصم به الثورة للتقدم في طريق التطور الاجتماعي .

ولينين هو استراتيجية الطبقة العاملة الثورية وخطتها . وهو الاتحاد مع الجماهير الكادحة في مزارع المستعمرات وشعوبها ، وهو على نقيض من التروتسكية عدو الثورة التي تريد السيطرة على

الفلاحين بالارهاب والعنف فان اللينينية تنجح على اهمية الفلاحين ، وضرورة كسبهم الى معسكر الثورة الاجتماعية .

ولينين هـــو الحزب ، الحزب الثوري المطرّق في غمرة المعـــارك الطبقية العظمى ، حزب الطليعـة ، المسلح بنظرية الطليعة ، وقائد الطبقة العاملة الى النصر ، هـذا الحزب المؤلف على قاعدة المراكزية الديمقراطية ، اقام دعائمه لينين وكان يريد دائماً ، وقبل كل شيء ، الحفاظ عـــلى وحدته ، وصيانتها من عبث العابثين ، واخيراً: فلينين ، في الظروف التاريخية للحرب العالمية الاولى والاعوام التي تلتها ، هو النضال في سبيل الحزب الثوري الاممي البروليتاري ، وفي سبيل الاممية الثالثة ، وتربية اعضاء الحزب وسائر العمال وفقـــاً لمبادىء الاممية البروليتارية وروحها وضد كل نظرة قومية او شعوبية ضيقة .

وهكذا لم تقتصر جهود لينين على الدفاع عن تعاليم ماركس وانجلز وحمايتها من « المرتدين » والمزورين من اتباع الاجتماعية الديمقراطية ، بل انه طوّر النظرية الماركسية ودفعها الى الامام: وفي هذا كتب ستالين يقول :

« اللينينية هي الماركسية في العهـد الاستعماري ، وعهـد الثورة العمالية البروليتارية ، وبكلمة اقرب الى الدقة : اللينينية هي نظرية الثورة البروليتارية وخطتها ، على نحو عام ، ونظرية ديكتاتورية الطبقة العاملة وخطتها ، بخاصة » .

وقدر لستالين نفسه ، وهو تلميذ لينين ومكمل نظريته ، ان يمنح النظرية الماركسية – اللينينية تطورات مهمة جديدة ، وان يغني ، بدوره ، تعاليم مؤسسي الاشتراكية العلمية ، وان يدفعها الى التقدم والتطور ، وقد عمم ستالين التجارب الضخمة للبناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، فالقى اضواء نفاذة على مختلف مظاهر التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، في عهد ديكتاتورية البروليتاريا وظروفها ، لقد صاغ ستالين نظرية بناء الاشتراكية في بلد واحد .

* * *

في شباط ١٩٢٥ زرت الاتحاد السوفياتي اول مرة . هناك... حيث تحققت الثورة التي تنبأ بها ماركس ، دخلت خافق القلب، الى هذا العالم الجديد ، الذي اراده العمال وصاغوه كما شاؤوا .

وكنت انظر بعين الاعجاب الى هذا الكون الذي يُبنى ، وهذه المدن التي تطلع من الارض ، وهذه المصانع التي تدور عجلاتها لا لمصلحة فئة قليلة انانية مستثمرة منحلة، ولكن لمصلحة المجموع وفي خدمته ، وكانت وجوه العمال والعاملات تعلن في عزة وعزم : « لقد بنينا كل هذا بدون سادة ولا ارباب عمل . ونسيره بدونهم ايضاً » . وكانوا يجهدون بما يبذلون من تضحية وما يتحملون من حرمان ، لاعادة الحياة الى هذه الارض التي اكتسحتها الرأسمالية ونهبت خيراتها .

وفي رحلة ثانية الى الاتحاد السوفياتي ، زرت حوض المناجم في الدونيتز . فرأيت عمال المناجم الذين كانوا يعملون منذ ١٩٢٧ ، ست ساعات في اليوم ، ويستخدمون معدات حديثة متقنة ، ويتمتعون باجور تقاعدية ضخمة ، وبضمان اجتماعي حقيقي . والى جانب ارقى عامل في العالم ، ذلك المتحرر من نير رأس المال ، وسيد اقداره وموجد مصيره ، رأيت الفلاحين والمثقفين ، وقد حررتهم الثورة هم ايضاً ، يشغلون المراكز اللائقة ، في جمهورية عاملة ناشطة . وكانوا جميعاً متحررين من مشاغل الغد الممضة ، مطمئنين على مصائرهم ، كان في وسعهم العمل والانتاج . فمنازل الدعة تظل اوقاتهم العاصفة ، والمجموع هو الذي يعنى باولادهم . وشيخوختهم تنقضي سعيدة آمنة ، كأنها امسية نهار جميل...

وزرت مدارس ضخمة ، ومختبرات جميلة ، ومصانع مجهزة بالادوات الحديثة . وحضرت انتخابات مجلس السوفيات في موسكو ، وفي كل مساء كانت المواكب تتجه شطر ساحة « الدستور » لتقدم الى السوفيات لوائح المندوبين عن كل مصنع .

وكانت اعظم شخصيات الدولة العمالية تحف لتحية العمال وتهنئتهم .

كانت تبدو لنا ، في كل مكان ، مشاهد من الديموقراطية الحقيقية : الجماهير الشعبية في الحكم . وكنت اقارن هذه الديموقراطية الحقة بديموقراطيتنا الغربية الشكلية ، حيث

تعني الحرية ، في اغلب الاحيان ، بالنسبة الى الجماهير الكادحة ، حرية الموت جوعاً . وكنت اتصور الحياة الجميلة الرائعة التي توجدها الطبقة العاملة حين تستولي على مقاليد الحكم في فرنسا ، وحين لا تنفق جهودها وقواها لبناء ثروة فئة قليلة من الناس ، والمحافظة عليها .

واثناء زيارتي الاولى لموسكو ، اصبت سعادة لا توصف ، ولا تتاح لكثيرين ، وهي رؤية الرفيق ستالين وسماع حديثه . وكان تدخله في الحديث ، مرة بعد مرة ، على نحو يجمع البساطة الى العمق، قد احدث اثراً قوياً فيّ وفي جميع المناضلين العماليين الذين اسهموا في اعمال اللجنة التنفيذية للاممية .

وفي اليوم السابق لموعد رحيلنا ، استقبلنا الرفيق ستالين ، واثرت بشاشته القلبية العفوية فشعرنا بالارتياح منذ اللحظة الاولى . واستمرت احاديثنا اكثر من ساعتين ، وخشينا الاطالة ، ولكن الرفيق ستالين ، بعد ان اجاب باسهاب ووضوح عن اسئلتنا ، اخذ هو يوجه الاسئلة ، وابدى يومذاك فكرة ظلت راسخة في ذاكرتي ، قال : « ان النفوذ الحقيقي لحزب من الاحزاب ، يقاس بالاعمال التي يستطيع هذا الحزب تنظيمها وقيادتها » .

ولدن توديع ستالين اراد بيار سيمار ان يوجه الشكر باسمنا الى رفيقنا العظيم فأجاب ستالين ببساطة : « ولماذا الشكر ؟ نحن اخوان ، وانا انما اقوم بواجبي كأي شيوعي » .

وفيما كان الاتحاد السوفياتي ينهض من بين خرائبه الواسعة التي كومتها الحرب وسببها التدخل الاجنبي الاستعماري ، وفيما كان ينطلق منـــذ تشرين الاول ١٩٢٨ لتحقيق مشروعات الخمس سنوات ، في هذا العهد ، كيف كانت اوضاع فرنسا ؟ عُينّت الوزارة الزرقاء ، وبعد اربع سنوات تخلت عن الحكم مخلفة اسوأ الآثار ، فخـــلال هذه السنوات الاربـــع ارتفع القرض العـام من ٢٥٠ الى ٢٨٠ مليار فرنك فلم يكن امام الكتلة الوطنية لتغطية هذه الفضائح المالية الا الاقتراض ، مرة اخرى ، وزيادة الضرائب والتمضمض بهذه الكلمة الجميلة « المانيا ستدفع » غير ان المفيدين من الحرب هم الذين اضحوا يفيدون من السلام . فكانوا يثرون من اعادة بناء المناطق المكتسحة المدمرة ، ومن نهب البضائع الاميركية ، ومن التواطؤ مع موظفي الدولة في سبيل عطاءات رابحة وعمليـات بيع مريبة ، محققين بالف وسيلة ارباحاً عجيبة .

ونشأ اتحاد النواب الراديكاليين والاشتراكيين ، المعروف باسم كارتل اليساريين لمجـابهة نواب الاكثرية المعروفين باسم « الكتلة الوطنية » . ووجه الحزب الشيوعي نداء الى الجماهير الكادحة تحت شعار : « هيا الى كتلة العمال والفلاحين » .

وكان البرنامج الشيوعي الذي تبنـاه مؤتمر ليون يدعو الى جبهة موحدة من جميع عمال المدينة والارياف في سبيل تأليف حكومة من العمال والفلاحين وكان يحذر الجمـاهير من الاعيب

« كارتل اليساريين » واوهامهم...

وتسلم « الكارتل » الحكم اثر انتخابات ١٩٢٤ فأحجم عن تطبيق برنامجه ، رغم اننا فضحنا نقص هذا البرنامج وعدم كفايته لحاجات الجماهير . وبذلت الفئة المستثمرة ، المهددة في مصالحها ضغطاً قوياً وشددت الاوساط المالية العليا من حدة هجومها ، فأدت الى تدهور الفرنك ، وقلبت وزارة بعد وزارة . وفي ٢٣ تموز اعادت بوانكاريه الى الحكم ، وهكذا انتصر « جدار المال » على غرفة « الكارتل » .

وتميز عام ١٩٢٥ بالحرب في مراكش، وقام الحزب الشيوعي يفضح الاسباب الاستعمارية لهذا العدوان على الشعب العربي ، ودور الشركات الكبرى ، من صناعية ومالية ، في النزاع ، وبخاصة دور بنك باريس والبلاد الواطئة . أجل ايها الشهداء المراكشيون . لقد بذلتم دماءكم للدفاع عن بلادكم ضد بنك باريس فاغفروا للشعب الفرنسي هذه المؤامرة على كرامته وكرامتكم . وانتم ايها الجنود الفرنسيون ، الذين بذلتم دماءكم في ميادين المستعمرات ، انتم انما بذلتموها وتبذلونها في سبيل الرأسماليين لا في سبيل بلادكم .

وقد قال لينين :

عند بلوغ الرأسمالية اعلى مراحلها ، تتحول الى نظام شامل للاضطهاد والارغام الاستعماري وخنق اكثرية سكان الكرة

الارضية خنقاً مادياً ، من قبل بعض « البلدان الراقية »(١) .

وهكذا يضطر المستعمرون ، لزيادة ارباحهم ومضاعفتها بلا انقطـــاع ، الى بناء الخطوط الحديثـة ، والمرافيء ، وانشاء المؤسسات التجارية والصناعية ، وينتج عن هـــذا ، في البلد المستعمر ، ظهور بروليتاريا عمـــالية ، ويقظة الوعي القومي ، وتقدم التحرر الوطني .

ان حركة التحرر الوطني تضعف مواقع الاستعمار. والواقع ان هذه الحركة هي حليفة الطبقة البروليتارية في الدولة المستعمرة فالعمال وسكان المستعمرات يناضلون معاً ضد اعداء مشتركين هم الرأسماليون المستثمرون. ان المعونة التي بذلتها الطبقة العاملة الفرنسية ، للسكان المراكشيين تتفق ومباديء العدالة والاخوة التي يعتنقها العمال ، اي تتفق ومصالح العمال الخاصة ، في بلادنا، ونحن نضع دائماً نصب عيوننا كلمة ماركس :

« ان شعباً يضطهد سواه من الشعوب ، لا يعرف ان يكون شعباً حراً . »

كان يقود الحركة المناهضة لحرب مراكش « لجنة مركزية للعمل » عينت رئيساً لها ، فغادرت منطقة الشمال الى باريس .

وخلال صيف ١٩٢٥ ، عقدت مؤتمرات عمـــالية عديدة ، وبخاصة في باريس وليون وليل ومرسيليا وبوردو وستراسبورج

(١) « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » لينين .

وبيزييه . وكنت ادعو الجميع ، في هذه المؤتمرات ، باسم لجنة العمل ، الى الاتحاد ، وتبنى المؤتمرون مبدأ الاضراب العام ، وفي ١٢ اكتوبر ١٩٢٥ اعلن الاضراب العام احتجاجاً على الحرب في مراكش وسوريا ، وعلى ضرائب كايو ، وفي سبيل زيادة جميع الاجور ، واشترك في هذا الاضراب مليون عامل ، وكان ذلك اول اضراب سياسي جماهيري شامل منذ نهاية الحرب وقد رافقه بعض الحوادث العنيفة في منطقة باريس ، وفي بيتو قتل العامل سابانيه ، كنا نتبع ، بمناهضتنا الحرب في مراكش ، اعرق تقاليد الاشتراكية والراديكالية الفرنسية واقدمها ، ففي عام ١٨٨٥ حارب حزب العمال الفرنسي بقيادة جوريس ليفضح « خلية البعائيب » المختبئة خلف الحرب المراكشية والحملة على الهند الصينية ، وكذلك كشف القناع عن الدهاليز السرية المالية التي تهيء النزاع المراكشي وتمده ولقد فضح حرب اللصوصية الاستعمارية فقال ، في خطاب له في السابع من ايلول ١٩٠٧ : « ثمة في هذه اللحظة صحفيون مأجورون مفترسون ، وصرافون متهورون ، ورأسماليون متكالبون ، يحلمون بمراكش ، وكأنها مغامرة جميلة مثمرة ، ولكن فيما ينطلق زبد الطبقات الرأسمالية العليا ، في مرح وحبور ، الى الشواطيء المراكشية ، نرى ، حتى في الطبقات البورجوازية الوسطى ، وحتى في الديمقراطية المزارعة التي لم تؤمن بعد بالاشتراكية الكاملة ، ملايين وملايين من الناس الذين يرفضون ان يراق ذهب فرنسا ودماؤها في هذه المغامرات المجدبة الجائرة ، انها مغامرات تغشيها رعشة

الجريمة ، ولكن هذه الرغبات في السلام ، لا تزال مبعثرة ، او مغمورة ، او حائرة ، » .

في عام ١٩٢٥ تناسى القادة الاشتراكيون ، وعلى رأسهم ليون بلوم وبول فور ، تعاليم غيد وجوريس ، فكانوا يبذلون جهودهم لدعم الحرب اللصوصية والعصابات والعدوان الاستعماري في مراكش وسوريا .. بينما كنا نحن الشيوعيين نناضل في سبيل السلام ، فانقضت تدابير الانتقام والقمع على مناضلينا ، فاعتقل منهم ٢٦٧ ونالوا اكثر من ١٢٠ عاماً من السجن ، ولوحقت انا ايضاً وحكم علي بالسجن ١٤ شهراً .

* * *

وفي مؤتمر الحزب الشيوعي بليل (١٩٢٦) نهض الحزب يحارب الانعزالية وضيق الافق ، وصرحت بوصفي عضواً في المكتب السياسي وامين لسر اللجنة المركزية ، بأن الشيوعيين هم الوطنيون الصالحون الحقيقيون وهم افضل الفرنسيين :

« الشيوعيون ، هؤلاء الاميون ، هم الذين اصبحوا اليوم افضل المدافعين عن التراث القومي ، والشيوعيون هم الذين يرفضون اليوم ان يتسلم اصحاب المصارف الانكلوأميركية نتاج عمل اجيال عدة ، غنيمة باردة ، ومن البدهي ان الشيوعيين اذ يقفون هذا الموقف ، وحين يقولون ، على نقيض القادة الاشتراكيين : « لا نريد ان ندفع لاصحاب المصارف الانكلو

اميركية » فذلك لا يعني انهم يريدون ادخال الفرح على قلوب اصحاب المصارف الوطنيين الفرنسيين ، ولكنهم يعبرون بذلك عن ارادتهم الواضحة وعزمهم على التحرر من ديكتاتورية اصحاب المصارف من اجانب ووطنيين على حد سواء . »

والى جانب بياني هذه الناحية من نشاط البروليتاريا ، المحافظة على الثروة الوطنية ، وجهت التحية الى الحزب الشيوعي ، وارث التقاليد الثورية التي يعتز بها شعب فرنسا :

اذا كان ثمة اليوم من يستطيع الانتساب ، بحق ، الى جميع تقاليد النضال العمالي في منطقتنا ، تقاليد عمال مناجم آنزين ، وشهداء فورمي ، وملاحي دانكرك وضحايا آرمانتيير ، فهؤلاء هم المناضلون في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي . »

وفي عام ١٩٢٧ اشتدت الاتجاهات التدخلية في مختلف البلدان واشتد خطر الحرب على الاتحاد السوفياتي ، وتعددت الحوادث على الحدود السوفياتية المنشورية وعلى ساحل المحيط الهادىء ، وكان كل يوم يطالعنا بانباء ومؤامرات جديدة واعتداءات على سكة حديد الصين الشرقية ، واعتقال موظفين سوفياتيين ، وتعديات على الحدود ، وحوادث صيد... الخ... كان العسكريون اليابانيون يريدون الحرب ، ولكنهم كانوا يترددون ازاء سياسة الاتحاد السوفياتي المصمم على السلام ، وبخاصة ازاء قواه العسكرية المتصاعدة .

وقطعت انكلترة علاقاتها التجارية بالاتحاد السوفياتي ، وفي فرنسة كانت البورجوازية الكبرى واركان الحرب يبذلون جهودهم لاثارة الحرب على روسيا ، وادلى الماريشال فوش يوماً بتصريح طنان الى صحيفة « ريفري » الانكليزية خلص فيه الى ضرورة تدخل فرنسة فاجابه الحزب الشيوعي بجواب عنيف ، وكان ذلك سبباً لاعتقال بعض الرفاق .

وزادت الصحافة الرجعية في باريس من حدة حملتهـــا على الاتحاد السوفياتي، واغتنمت فرصة خطاب القاه السفير السوفياتي فطلبت نقله وكان لها ما ارادت .

وكانت الحالة تشتد خطورة يوماً بعد يوم ، وانشأنا نناهض وحدنا الاحزاب الفرنسية مجتمعـــة ، ونناضل في سبيل السلام وفي سبيل الاتحاد السوفياتي .

ورأينا كيف اختنق «كارتل اليساريين» تحت ضغط الرأسمالية؛ ثم عمد بوانكاريه الى انقاص الاجور ، وزيادة ساعات العمل ، وزيادة استثمار المستعمرات ، وارهاب العـــاطلين عن العمل « والسيطرة على الشارع بالحديد والنار » كما صرّح يوماً، فنصب هذا الحاكم نفسه بطلاً من ابطال «الثقة الرأسمالية» وطبق سياسة رأس المال المالي .

وناضل الحزب الشيوعي لتوحيد الطبقة العـاملة والطبقات الوسطى المستثمرة التي ادت بها الرأسماليـة الى الفقر ، وصهرها جميعاً في عمل واحد مشترك ضد البورجوازية العليا .

ولم يكن البعض ، في داخل الحزب ، ليفهموا الخطة القائلة بـ «طبقة ضد طبقة» التي اضحت ضرورية اثر التحولات في الحالة العامة ، وكان دوريو ، قائد هذا البعض ، قد ضلل الرأي العام، مدة ، بمواقف صاخبة لم يخف على احد ما فيهـــا من مغامرة وانتهازية . وقام متطرفو اليسار في منطقة باريس يناهضون الانتهازيين ، منتهجين سياسة مغامرات ، تبالغ في تقدير قوى الحزب الحقيقية ، وطاقته على استمالة الجماهير ، ولم تكن ثمة الا قرارات بيروقراطية آلية ، مستحيلة التنفيـــذ ، ومظاهرات ثورية تفرقها الشرطة بالعنف ، وبعض حالات تحتم على اعضـاء الحزب « اضراب القدوة » ، والطرد من الحزب لاتفه الاسباب ، واتهام الناس بالخيانة والرجعية، كانت هذه السياسة الحمقاء تحاول ان تجعل من الحزب فرقة منعزلة عن الجماهير .

وامعاناً في هذه السياسة الغافلة ، دان المسؤولون الاول عن هذه السياسة المغامرة المجنونة ، بالمباديء التروتسكية ، وبعد ان تورطوا في اخطاء لا تحصى ، وفي حركات فاشلة كادت تقضي على الحزب ، قاموا يتهمون الحزب والاممية ويلقون عليهما اعباء حماقاتهم . وكان علينا النضال في جبهتين : ضد الانتهازية التفاهمية وضد الانعزالية اليسارية ، وكان عليّ ان ابذل في ذلك اكبر الجهود .

* * *

في حزيران ١٩٢٧ وجهت الي التهمة التقليدية : « تحريض

رجال الجيش على العصيان ، ابتغاء نشر دعاوة فوضوية » ثم حكم عليّ بالسجن ستة اشهر وبغرامة مالية...

وبعد ذلك بمدة وجيزة، دعيت الى خدمة عسكرية اضافية، لمدة ٢٥ يوماً ، في الفرقة الهندسية الثالثة ، ووكلت اليّ مهمة في ترميم الجسور وبنائها .

وفي اليوم التالي لعودتي الى باريس ، ذهبت لاشترك في اجتماع بمركز الحزب ، شارع لافاييت ، وعند خروجي هاجمنا مفتشو الشرطة وجواسيسها فنشبت بيننا معركة قصيرة الامد ، ونجحت في الافلات، تاركاً في يد احد رجال الشرطة مزقة من ياقتي ، وشطراً من قميصي...

وبعد ايام قليلة تكررت الحادثة ، وكانت هذه المرة في مركز منطقة باريس ، شارع لافاييت . فقد حضر حشد من رجال الشرطة لاعتقالي . فمنعهم الرفاق من الدخول ، طالبين اليهم ابراز مذكرة التوقيف ، وانطلق رئيسهم ليستحضر المذكرة واغتنمت الفرصة فتنكرت وفررت...

وافتتحت عهداً من حياة متشردة قدر لها ان تستمر عامين. فكنت اعيش في منازل الرفاق ، وارقد فيها ، وابدل مكان سكني كلما سنحت الفرصة..

كنت بنجاتي من الاعتقال ، ونضالي الشرطة السياسية ، قد صدفت صدوفاً حاسماً عن بعض العادات « القانونية »

والانتهازية التفاهمية ، التي كانت شائعة حتى عند قادة الحزب الشيوعي...

ولم يكن « الرفاق » يستسلمون الى الشرطة وحسب ، دون ادنى مقاومة، بل كان بعضهم يذهب مختاراً الى السجن او يتصل بالشرطة ويضرب لها موعداً لتسلمه...

لم يمنعني ما حملت عليه من التشرد ، من مواصلة نشاطي النضالي، وحضور اجتماعات اللجنة المركزية ، وجلسات المكتب السياسي ، واجتماعات الحزب السرية ، بل انني خطبت يوماً في الجماهير اثناء المعركة الانتخابية عام ١٩٢٨ ، في مهرجان سياسي ضخم ، نظمه الحزب بجوار بلدة فايف فيل .

وفي انتخابات عام ١٩٢٨ هذه ، حيث عمد الحزب الى خطة « طبقة ضد طبقة » نلنا ١٠٧٠٠٠٠ صوتاً اي اننا كسبنا ٢٠٠٠٠٠ صوتاً زيادة عما نلناه عام ١٩٢٤ ولكن عدد النواب الشيوعيين تدنى من ٢٦ الى ١٤ ! لان تقسيم مناطق الاقتراع أجري على نحو يتيح لجميع الاحزاب الاتحاد ضدنا وكان تقسيم الدوائر الانتخابية يشتت التجمعات العمالية ، وللدلالة على ذلك يكفي ان نذكر ان الحزب الاشتراكي قد نال ١٦٠٠٠٠٠ صوتاً فكان له مئة نائب !

وحاولت الحكومة تحطيم جهودنا الباسلة ، بعد ان فضحنا سياستها العدوانية الموجهة الى الاتحاد السوفياتي ، فضاعفت

الاعتقالات والاتهامات فكانت تزج المناضلين في السجون لصد الحركة العمالية !

وحدثت في صفوفنا خيانات وهزائم كما يحدث دائماً في جميع الاوقات الحرجة . كان العدو يسدد الينا ضرباته من الخارج ، ولكنه نجح ايضاً في التسلل الى داخل الحزب . وكان ثمة خونة مرتدون يختفون وراء سيليه وغارشري . وآخرون مثل دوريو ، كانوا يبالغون في التحفظ والاختباء ، ليتسنى لهم الامعان في الخيانة...

في تلك الايام تألفت جماعة باربيه سيلور التي اغتنمت فرصة تفرق المناضلين في السجون والمخابيء وتسلمت قيادة الحزب لتطبيق سياسة انعزالية تخريبية خائنة ، ولماذا لا اشير الى ان دوريو وباربيه وسيلور كشفوا الاقنعة عن وجوههم ، فيما بعد ، فاذا بهم عملاء عاديون لهتلر وخونة لبلادهم .

في حزيران ١٩٢٩ اجتمعت اللجنة المركزية في آشير « بالقصر » التابع للبلدية الشيوعية. فحاصر رجال الشرطة البناية، فلجأت الى مخبأ سري ، ولكن رجال الشرطة ، وقد بلغتهم انباء دقيقة ، اتجهوا مباشرة الى المخبأ .

وتجددت امثال هذه الخيانة ، وبعد مرور شهر على اعتقالي، وقبل حدوث مظاهرة الاحتجاج على اخطار الحرب يوم اول آب ١٩٢٩ ، اعتقل جميع اعضاء اللجنة المركزية ، دفعة واحدة في فيلنوف سان جورج..

وفي البدء سجنت في السانتيه ، مع المعتقلين السياسيين ولكن محكمة الجنايات في شار لفيل وجهت اليّ تهمة لا اذكرها ، فجاء رجال الشرطة يوم ١٤ تموز سنة ١٩٢٩ لنقلي الى نانسي حيث حكم علي بسجني ثمانية اشهر ، ونقلت في القطار والى جانبي مفتشان في الامن العام ، اقتاداني الى سجن شارل الثالث .

وما ان تمت مراسيم «التسلم والتسليم» حتى بدأت تطالعني المفاجآت اذ اقترب مني السجان وامرني ان اخلع ثيابي، فدهشت لهذا الطلب ونظرت اليه متسائلا ولكنه اعاد قوله صارخاً : «اخلع ثيابك» فأجبته بهدوء : لن اخلع ثيابي . وانا امنعك من توجيه الحديث بهذه الصيغة المستهجنة(١) . فاحتقن وجهه غضباً وجعل يهدر ويزمجر وشرع في التهديد ولكن عبثاً :

ـ اخلعوا ثيابكم... او ابدأ باستعمال القوة !..

لم يعد يوجه الي الحديث بصيغة المفرد . وبعد قليل اخذ يشتم ويغمغم ولكنه انسحب متراجعاً...

كانت الحجرة التي سجنت فيها مظلمة ، رهيبة ، لا ينفذ اليها الهواء الا بصعوبة . اما رائحة العفونة فتملؤها صيفاً شتاء ، لقد قدر لي ان اقضي في هذه الزنزانة البائسة عاماً كاملاً . ثم

(١) في الاصل «بصيغة المفرد» وتدل بالفرنسية على رفع الكلفة بين المتخاطبين اما صيغة الجمع فدليل على الاحترام .

« المعرب »

طلبت يوماً مقابلة رئيس السجن ، فلم يأبه احد لطلبي ، ولكنني احدثت من الضجة ما حققته . وحين جاء ابلغته انني عزمت على معاملتي بوصفي معتقلاً سياسياً ، ولو كلفني ذلك الاضراب عن الطعام . فلا الضرب ولا وسائل التهديد تثنيني عن عزمي ، وسأحصل على احترام حقوقي بوصفي معتقلاً سياسياً . وحصلت بالفعل على هذه الحقوق ، فعشت مع سبعة معتقلين سياسيين آخرين كما كان يعيش رفاقنا في سجن « السانتيه » فكنا نقضي النهار معاً والليل كل في زنزانة ، ولكن كان امامنا نضال دائم لنجبر الحراس على احترام حقوقنا . فكان هؤلاء يدخلون الى حجراتنا دون قرع الباب ، فطلبت اليهم ان يستأذنوا قبل الدخول ففعلوا .

وكنا نجتمع الى زائرينا في قاعة النظارة وكان علينا التحدث من خلال شبكة حديدية بحضور الحارس ، وبعد الحاحنا خصص لنا حجرة للاجتماع . وكنت اجتاز يوماً ساحة السجن متجهاً الى زنزانتي فناداني رجل يرتدي الثياب المدنية :

— هوه... انت... هناك...

فلم التفت اليه فسأل الحارس عن اسمي ثم صاح :

— توريز... انا اناديك...

فلم اعره اي اهتمام بل دخلت الى غرفتي الخاصة وما ان اغلقت الباب حتى دخل الرجل صاخباً مزمجراً فقلت له بحزم وهدوء : اخرج حالاً يا سيدي...

— انت لا تعرف شخصية محدثك .. انا قاضي التحقيق ...

— وانا عامل شيوعي ومعتقل سياسي وليس لي اي علاقة بقاضي التحقيق... اخرج !

ولم يلح في النقاش اكثر من ذلك ، بل خرج..

وخلال مدة اعتقالنا ، نظمنا شؤون مدرسة لتثقيف رفاقنا الشبان المعتقلين . وكانت الاعمال المشتركة ، والاحاديث مع الرفاق لا تستغرق كل وقتي ، فكنت اغتنم الفرص لاستكمال ثقافتي السياسية .

في مجرى الحياة العادية تستغرق المهام العملية وقت المناضل العملي فتكاد لا تبقي له لحظة ، حتى ولو لم يضحّ في النوم الا ساعات قلائل ، واما في سكون الزنزانة فيستطيع ان يركز تفكيره في المسائل الكبرى ، وان يقرأ والقلم في يده ، وان يفكر ويكتب ؛ وفي سجن شارل الثالث عدت الى قراءة كتب ماركس وانكلز ولينين، فما اقوى الفكر وما اغناه عند اساطين الاشتراكية العلمية. فجميع ما تحدثنا عنه، من التمركز الرأسمالي ، وفقر الجماهير الكادحة ، وتطور المجتمع ، قد تحقق في دنيا الواقع . وما كنت استطع رفع النظر عن صفحات « البيان الشيوعي » المشرقة اللاهبة ، وهذا البيان صدر عام ١٨٤٨ ولكنه لا يزال الى اليوم يحتفظ بجدة بريقه وحيوية معينه. وكنت احفظه عن ظهر القلب ، وذلك لاني درّسته في

« بيتون » عـــام ١٩٢٤ لعمال فتيان اصبحوا فيما بعد مناضلين مخلصين ، اما صفحات التحليل التي يوردهـا ماركس في « ١٨ برومير لويس بونابرت» فكانت تساعدني على تفهم الحقيقة الفرنسية تفهماً حسناً وثمة جملة لفتت نظري يشير فيها ماركس الى ضرورة اتحاد الطبقة العاملة الفرنسية مع الفلاحين والطبقـات الوسطى ، وكان كتاب ماركس « صراع الطبقات في فرنسا » وكتابه « الحرب الاهلية في فرنسا » يدعمان ايماني بالطبقة العـاملة الفرنسية . اليس العمال الفرنسيون هم احفاد اولئك الكومونار الذين « كانوا يصعدون لاحتلال سماء الامجـــاد ؟ » لقد حقق التاريخ رأي ماركس: « ان الطبقة العاملة في باريس وكومونها ستتمجدان الى الابد بوصفهما غمداً مجيداً للمجتمع الجـــديد . وسيظل قلب الطبقة العاملة الكبير منطوياً على شهدائها، امـــا مضطهدوها فسرعان ما أوثقهم التاريخ الى خشبة اعدام ابدية والى وتد تعذيب لا انفصام لهم عنه ، ولن تنجح صلوات كهنتهم جميعاً في تحريرهم منه . »

لقد استعـادت ثورة اكتوبر العمل الذي بدأه رواد سنة ١٨٧١ الابطال ، واكملته ، فبنت عـــلى رقعة مساحتها سدس الكرة الارضية كومونـاً ظافراً ، وانطبعت في ذاكرتي فكرة ماركسية اساسية : ان الحركة الديالكتية تحمل الثورة ونقيضها في صراع دائم ، والثورة تجعل نقيضها دائماً اشد ضراوة وعنفاً ، ونقيض الثورة يدفع هو الثورة الى الامام ويحملها على بناء

حزب ثوري حقاً ، وقدر لي فيما بعد ان أتحقق صحة هذه الفكرة حين بدأ الاعتداء الفاشي ٦ شباط ١٩٣٤ وجعلت الجماهير الكادحة تنتظم ابتغاء بذل مقاومة متصاعدة ، ثم تحولت هذه الجماهير الى الهجوم ؛

وزادني انكلز يقيناً بان ليس ثمة عمل مثمر لا يرتكز على الواقع . ففي ملاحظاته على برامج اللاجئين البلانكيين من حركة الكومون (١٨٧٤) كتب يقول : «انها لسذاجة طفولية ان يقيم الانسان لهفته الخاصة ونفاد صبره مقام الحجج النظرية» .

وكنت اجد في كتب لينين تفسيراً مدهشاً للظاهرات المعاصرة ، تزداد قيمته لانه مستمد من بلادنا :

« ان سيطرة اتفاقات الحصر الرأسمالية تصبح ، على نحو محتوم ، في ظل الانتاج التجاري والملكية الخاصة ، سيطرة محصورة بايدي فئة قليلة من اصحاب رؤوس الاموال المالية ، وسيطرة نفر محدود من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة ، سيطرة فظيعة بلغ من وضوحها وكونها واقعاً بيّناً جلياً في جميع البلدان الرأسمالية : في اميركة وفرنسة والمانية ، انها كانت مادة لالوف الكتب التي تصفها وتنتقدها ، من وجهة النظر البورجوازية الصغيرة طبعاً(١) .

---

(١) لينين « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » .

واي خطة تتخذ الطبقة العاملة لتنتصر على خصومها ؟ يجيب لينين : الاتحاد ! : « ان اتحاد البروليتاريا هو اعظم اسلحتها في معركتها في سبيل الثورة الاشتراكية . »

ومنذ ١٩٠٢ قال لينين في كتابه « ما العمل ؟ » : « ان الذين تعوزهم الثقة بانفسهم هم وحدهم الذين يخشون الاتحاد المؤقت ولو كان ذلك مع عناصر غير موثوق بها ، ولكن الشرط الضروري لاتحاد كهذا هو قدرة الشيوعيين على اقناع الطبقة العاملة بتعارض مصالحها ومصالح الطبقة البورجوازية . »

ومن مؤلفات ستالين كنت ادرس بشغف كتابه الجليل الفخم « مسائل اللينينية » . ألم تكن المشكلة الكبرى التي تعترضنا هي الوصول ، وقد اضاءت الطريق لنا تعاليم لينين وستالين ، الى « تنظيم حزب جديد ، حزب مقاتل مناضل ، حزب ثوري ، له من الشجاعة ما يتيح له قيادة العمال الكادحين الى النضال في سبيل الحكم ، وله من الخبرة ما يحفظ عليه وعيه في ظروف موقف ثوري معقد ، وله من المرونة ما يجعله يتخطى العقبات المختلفة الانواع ، على الطريق المؤدية الى الهدف(١) ». وهكذا كنت احمل مطالعاتي لاقارنها بالموقف في فرنسا ، واجد عوامل تطبيقها وامكاناتها في بلادنا ، فكنت افيد من ذلك درساً مزدوجاً ويقيناً بحاجة مزدوجة ايضاً : اتحاد البروليتاريا والتحالف مع الفلاحين والطبقات المتوسطة لتحقيق

(١) يوسف ستالين . اصول اللينينية طبع فرنسا ١٩٤٧ .

هذه الغاية على احسن وجه : حزب شيوعي صحيح .

وكنت ارغب في قراءة كتب ماركس وانكلز في لغتهما الاصلية ، فعزمت على دراسة الالمانية وكنت اعرف بعض اولياتهـــا فانصرفت الى الدراسة بهمة ونشاط ، وبعد شهور استطعت مطالعة « الانتي – دهرنج » لماركس دون صعوبات تذكر . وقد كنت لا ازال احس بالتقدير والاجلال للشعب الالماني الذي اعطى الانسانية ألبير دورر ، وغوتنبرغ ، وليسنج وغوته وهيجل وبيتهوفن وماركس وانكلز ... فمظالم العهد الهتلري، وصواعق النازيه الهتلرية التي اكتسحت اوروبا ودمرتها، وجعلتها اثراً بعد عين لم تحملني قط عـــلى اخذ الشعب الالماني بحكم واحد شامل ، فانه يخلق بنا ان لا نخلط بين هذا الشعب وبين جلاديه .

كنت افضل من الشعراء الالمـــان غوته وهايني . الم يبلغ من تجرد غوته انه حيا انتصار الفرنسيين في « فالمي » ؟ ان مؤلفات غوته تزخر بالتعـاليم الثورية : « مربدة يا صاحبي هي النظريات كلها ، وخضراء شجرة الحياة الجميلة » .

هذان البيتان من رواية فوست حيث يبين غوته ان الحياة تتخطى دائماً كل نظرية فكرية ، كنت اذكر بهما قول لينين :

« ليست الماركسية مذهباً محدوداً ، بل انها دليل يقود الى العمل » .

وكنت احب ايضاً كلمة غوته وهو يؤكد انه « في البدء ... كان العمل » .

اما هنري هاينه فكان شاعراً ثورياً حقيقياً ، وصديقاً لماركس ، وقد جأر بكرهه للمستثمرين في اغنيته عن « نساجي سيليزيا» ، وكنت أتذوق قصيدته الهجائية « من اقاصيص الشتاء .. »

لم يكن هاينه الا روحاً وناراً . وها هو يحيي ، في باريس التي لجأ اليها من الرجعية البروسية ، العمال الفرنسيين الذين كان يرى فيهم « مردة وعمالقة يصوغون العصور الجديدة ويطرّقونها .. »

واخترقت كتب رومان رولان قضبان سجني فتمتعت زمناً طويلاً بصحبة «جان كريستوف» واسعدت عزلتي مغامرات « تيل او نبيجيل » حين استعدت جو الفلاندر ، مقاطعتي العزيزة ، وشغفها بالحرية ، وكرهها للطغاة جميعاً ، ومرحها الواثق ، وسخريتها وتفاؤلها ...

وقرأت بعض اقاصيص اناتول فرانس ، وهو آخر ممثل للفكرة الانسانية البورجوازية الذي ولى وجهه شطر الثورة الروسية في اواخر ايامه . لقد تميز فرانس ، في ديموقراطيتنا ، اولئك الذين يقبضون حقاً على اعنة الحكم ، فكتب في قصته جزيرة البنجوين : « بعد ان تحررت فرنسة من سلطة الملوك والاباطرة، وبعد ان جهرت معلنة حريتها ثلاثاً، عادت فخضعت

للشركات المالية التي تتحكم بثراوث البلاد ، وتوجه الرأي العام بوساطة صحافة مأجورة او مشتراة .

وكتب اناتول فرانس ايضاً : « يظن الجنود انهم يموتون في سبيل الوطن ... ثم يتبينون انهم يموتون في سبيل اصحاب المصانع .. »

واوشكت مدة اعتقالي ان تنتهي ، ولكن كان عليّ ان ادفع غرامة قبل خروجي من السجن ، وكانت عصبة باربيه سيلور قد عزمت على ابقاء جميع من يمكن ان يناوئوها ، في السجن، ليتاح لها تطبيق سياستها التخريبية. وهكذا قررت ان لا تدفع غرامتي ، وايقنت ان قادة العصبة على خطأ ، فعصيت قرارهم ، وقدمت كفالة ، فاخلي سبيلي ، واقرني الحزب والاممية فيما بعد على هذا العمل .

ها قد اصبحت حراً ، مليئاً بالعزم والنشاط ، وقد شحذت ذهني مطالعات كثيرة نافعة ، وقد فكرت طويلاً في المسائل التي تواجه البروليتاريا الفرنسية والمهمات التي كان عليّ اتمامها ، وعدت الى موقعي من المعركة ، واستأنفت النضال ، وبعد ذلك بقليل عهدت الي اللجنة المركزية بمهام السكريتورية العامة للحزب .

ماذا حدث في الخارج ، مدة سجني ؟ لقد أضعف الحزب ، واغتنمت العصبة السيلورية الفرصة ، فتسلمت جميع الوظائف والمهام ، وابتعدت بالحزب عن طريق اللينينية الصحيحة ، وكان

ذلك عن تصميم وقصد، وبدأت قوى الحزب تتدنى وعدد اعضائه يقل : فالاوساط الحزبية العليا تتخذ قرارات تحكمية، وتفرض انضباطاً وطاعة سلبيتين على اعضاء القاعدة ، خانقة كل مناقشة حرة ، متذرعـــة بالشك في كل انسان ، متخذة من الصمت المريب وسيلة للتوجيه ، ثم كممت الافواه جميعاً دون اي انتقاد مفيد مخصب ، فساد الحزب جو كأجواء الثكنات العسكرية ، هكذا فهمت « العصبة » القائدة المراكزية الديمقراطية التي دعا اليها لينين ، هكذا اصبح الحزب صورة ممسوخة للحزب . لقد اصبح حزباً ضعيفاً عاجزاً منطوياً على نفسه، بدلاً من ان يكون الطليعة الواعية النشيطة ، للطبقة العاملة .

كانت « العصبة » تعلن تجاهلها التام لجميع الحقائق اليومية ، ناسية هذه الحقيقة الاساسية وهي : « ان السياسة فن الممكنات من الامور » فكانت العصبة تفضل الجملة الخطابية الفارغة على التحليل الموضوعي الملموس ، مؤدية بذلك الى فشل الحركة العمالية وشلها وعجزهـا ، وكانت تهمل مطالب الجمهور الصغيرة وتركلها بالاقدام قائلة «لقد انتهى عهد النضال في سبيل البفتاك» وكانت تهمل النشاط النقابي وتشتم العمال الاشتراكيين .

وقد شهد الناس ، اثناء وجودي في السجن مناظر مؤلمة ، ففي صـــالة كابي ، وشابيني ، نشب عراك بين العـــمال : الاشتراكيون ضد الشيوعيين ! كان ذلك عهد دوريو الدافع الى المعارك بين الاخوان !

كان علينا ان نبني كل شيء بناء جديداً .

وفي البدء ، كان علينا تأييد مطالب جميع العمال ، بسيطة كانت ام مهمة ، وتوضيح اهميتها للناس ، وطلب تدخل الحزب ، لتأييد العمال في نضالهم .

اهملت العصبة امر «الضمان الاجتماعي» ولكن اللجنة المركزية عادت فتبنت اقتراحي للنضال في سبيل ضمان اجتماعي حقيقي ، يدفع اصحاب العمل اكلافه .

كان علينا ان نهتم بجميع ما يهتم له العمال ، فلا نهمل مطلباً او حركة ، مهما دقت . هذه هي الخطة التي تبنيناها ، فالشيوعيون يجب ان يكونوا ، كما اراد ماركس ولينين اعظم اجزاء الطبقة العاملة وعياً وصفاء .

وفرضنا على افضل مناضلينا الانقطاع للعمل النقابي ، وكان علينا كذلك ان نخوض معركة عنيدة في سبيل انقاذ مبادىء المراكزية الديمقراطية مكافحين خنق الافكار واجدابها : « لا أوثان في الحزب الشيوعي. فلتنفتح الافواه »(١) .

واخيراً كشف النقاب عن وجوه العصبة فابعدت ، واضحت الطريق الآن حرة مفتوحة للنهضة .

كان اتحاد البروليتاريا اعظم فكرة تشغل الحزب الشيوعي

---

(١) عنوان سلسلة من المقالات لموريس توريز في صحيفة الانسانية اكتوبر ١٩٣١ .

في تلك الايام ، فالشيوعيون لم يرضوا قط عن انقسام الطبقة العاملة الذي نشأ عن اقلية رفضت في مؤتمر « تور » الانحناء امام رغبة الاكثرية ، ورغم ذلك لبثنا نناضل دون كلال للقضاء على التفرقة وحشد جميع العمال في جبهة واحدة للنضال .

وفي البدء فشلت جهودنا ، فلم نيأس ولم نتراجع . وقد دللت الاحداث ، فيما بعد ، على صحة ايماننا ، وحقيقة ما نسعى اليه .

وظل الحزب الاشتراكي ، طوال سنوات عدة ، يصم آذانه عن ندائنا ، فلم يكن يجيبنا الا بالصمت والسخرية .

وفي السادس والعشرين من حزيران ١٩٣٢ اصدر هنري بربوس وروماں رولان نداء مؤثراً لاقامة مؤتمر عالمي عظيم، لمكافحة الحرب ووجه الكاتبان نداءهما الى جميع «الرجال ذوي الارادة الحسنة » والى جميع المنظمات العمالية ، والسياسية والنقابية والثقافية ، فقام زعماء الحزب الاشتراكي يناهضون المؤتمر ، متهمين الداعين اليه بخدمة دولة اجنبية ، معلنين انهم يطردون العمال الاشتراكيين الذين يسهمون في مؤتمر أمستردام او في نشاط احدى لجانه العدة .

اما نحن فكنا ، على العكس ، نبادر لاغتنام جميع الفرص التي تؤدي الى التعجيل بالاتحاد .

وفي خطاب ألقيته بصالة بوليبه اليوم الثاني من كانون الاول

١٩٣٢ صرحت رسمياً باسم حزبنا :

« ان الطبقة العاملة تريد الاتحاد ، والطبقةالعاملة تطلب هذا الاتحاد بأعمق ما فيها من قوة وعزم ، والشيوعيون يناضلون في سبيل هذا الاتحاد بجميع ما يملكون من قوة ، وهم يمدون يد الاخوة لجميع العمال الكادحين ، لنستطيع جميعاً التغلب على العقبات في طريقنا نحو وحدة الطبقة العاملة وانتصارها .

ونحن انما نغتنم كل فرصة مناسبة ، من مظاهرة او اضراب او اي احتجاج كان، لنواصل مهمتنا في توحيد العمال ، وجمع شملهم ، للنضال المشترك بين العمال جميعاً مهما كانت ميولهم ومنظماتهم .

نحن نناضل في سبيل اعادة تنظيم « سى جى تى » موحد .

وطبقة عاملة موحدة ضد البورجوازية .

ونقابة موحدة .

وحزب واحد للطبقة العاملة .

* * *

ما زلت اذكر زيارتي في تلك الايام هنري بربوس . وكان يسكن في فصل الصيف ، قريباً من سنليس ، دارة « سيلفيا » وقد سماها باسم بطلة جيرار دى نرفال الشاعر الذي ابدع في وصف تلك الناحية من « الايل ده فرانس » وخلف لنا عنها صورة لا تنسى..

كنت اتحدث مع بروس عن الوسائل التي تساعد على تحقيق وحدة العمال للنضال مثمر ضد الفاشية ، بعد ان اخذ شبحها يرتفع في آفاق المانيا منذراً العالم بكارثة جديدة ، وهو لم يكد ينهض من الجراح الدامية التي رمته بها الحرب الاولى .

وضاعفت اتصالاتي بالرفاق الالمان، باذلاً جهدي لمعاونتهم في نضالهم الصعب. وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٣٢ زار تايلمان باريس فاستقبلته الطبقة العاملة الباريسية بما وسعها من الترحيب والحماسة؛ وفي صالة بيليبه القى تايلمان خطاباً ، وعقبته انا بخطاب آخر . وفي ١٧ كانون الثاني ١٩٣٣ ألقيت كلمة في تأبين كارل ليبنخايت وروزا لوكسمبورج في مقبرة « فريدرنكفيلد » بمناسبة مرور ١٤ عاماً على اغتيالهما . وبعد ايام من مظاهرتنا استولى هتلر على الحكم ، وكان استيلاؤه عليه مصحوباً بجرائم عدة ؛ ولن انسى ما حييت جو برلين عام ١٩٣٣ ، فقد حملت عن اقامتي القصيرة في المانيا ما يشبه الشعور بالمآسي القادمة ، والكوارث الوشيكة ، من حريق الرايخستاغ الى معسكرات الموت والافناء ، ابان الحرب العالمية الثانية .